الفصل الرابع

نظريات المقاومة والكبت واللاشعور ، وقيمة الحياة الجنسية فى تعليل المرض وأهمية الخبرات الطفلية — تلك هى العناصر الرئيسية التى يتكون منها البناء النظرى للتحليل النفسى . ولم يكن فى وسعى مع الأسف فى هذه الصفحات إلا أن أصف العناصر منفصلة لا فى تداخلها فيما بينها وتأثير كل منها على الآخر . ولكن أرانى الآن مضطرًّا إلى أن أعرج على التعديلات التى طرأت تدريجيًّا على فن المنهج التحليلى .

لم يكن بد أن أتخذ فى بادئ الأمر من الإلحاح والتشجيع وسيلة للقضاء على مقاومة المريض بغية الحصول على نظرة مبدئية عامة لما يصح أن نتوقع وجوده. ولكن تبين مع الزمن ما تسببه تلك الوسيلة من إجهاد لكلا الطرفين ، الطبيب والمريض . وفضلاً عن ذلك فلم تكن بمنجاة من مآخذ بينة . ومن ثم استعيض عنها بمنهج آخر يكاد يكون عكسها . فبعد أن كنت أحفز المريض إلى أن يذكر شيئاً عن موضوع بعينه ، أصبحت أطلب منه أن يستسلم لعملية تداع حر ، أعنى أن يذكر كل ما يخطر بذهنه ، على أن يتجنب أى توجيه شعورى لخواطره. ولم يكن بدّ ، مع ذلك ، أن يلتزم المريض بذكر كل شيء يخطر بباله حرفيًّا معرضاً عن الاعتراضات النقدية التى من شأنها أن تستبعد بعض الخواطر بحجة عدم أهميتها أو عدم مناسبتها أو بحجة ألامعنى لها ، ولا حاجة بنا أن نلح ، فى مطالبة المريض صراحة بضرورة توخى الصدق فى تسجيل خواطره ، طالما قد أوضحنا له أن ذلك هو الشرط الأساسى فى العلاج التحليلى بأسره .

قد يبدو عجيباً أن طريقة التداعى الحر هذه التى هى تطبيق للقاعدة الأساسية فى التحليل النفسى ، قد حققت ما كان ينتظر منها ، أى نقل الأمور

المكبوته التى كانت تحتجزها المقاومات إلى الشعور . ومع ذلك يجب ألا يغيب عن بالنا أن التداعى الحر ليس فى حقيقة الأمر حرًّا . ذلك أن المريض يبقى تحت تأثير الموقف التحليلى حتى ولو لم يوجه عملياته العقلية نحو موضوع بالذات . ويحق لنا أن نفترض أنه ما من شيء يعرض للمريض إلا وله صلة ما بذلك الموقف . وتتكشف المقاومة التى يبذلها ضد استرجاع الأمور المكبوتة على نحوين. تتكشف أولاً فى الاعتراضات النقدية ؛ وما ابتكرت القاعدة الأساسية فى التحليل النفسى إلا لمعالجة هذه الاعتراضات . ولكن إن التزم المريض هذه القاعدة وتغلب بالتالى على تحفظه ، لم تعدم المقاومة وسيلة أخرى للتعبير عن نفسها . فهى تحول دون أن تخطر للمريض الأمور المكبوتة بالذات ، وإنما تخطر له أمور تقرب منها تلميحاً ؛ وكلما عظمت المقاومة ، بعدت الشقة بين البديل الذى يذكره المريض بطريق التداعى وبين الفكرة الأصلية التى يبحث عنها المحلّل . فالمحلل الذى يصغى فى هدوء دون إجهاد لتيار التداعى ، والذى له من خبرته فكرة عامة عما هنالك ، يستطيع أن يستخدم الأمور التى أبداها المريض على أحد نحوين . فإن كانت المقاومة طفيفة استطاع أن يستدل من تلميحات المريض على الأمور اللاشعورية ذاتها ؛ أما إن كانت المقاومة أشد استطاع أن يتبين نوعها من الخواطر المتداعية لإمعانها فى البعد عن الموضوع ، وفسرها للمريض . ومع ذلك فإن الكشف عن المقاومة ليس سوى الخطوة الأولى فى سبيل التغلب عليها . فالتحليل إذن عمل يتضمن فنًّا تأويليًّا ، لا بد للنجاح فى استخدامه من لباقة ومران ولكن ليس من العسير اكتساب ذلك الفن . ولا تمتاز طريقة التداعى الحر على الطريقة القديمة فى اقتصاد الجهد فحسب . فهى فضلاً عن ذلك لا تعرّض المريض إلا لأقل قدر ممكن من الإكراه ، ولا تقطع أبدًا الاتصال بالموقف الراهن ، وتضمن إلى حد كبير ألا يُغفَل أى عامل فى تركيب العصاب ، أو يقحم فيه المحلل شيئاً من عنده . والأساس أن مسار التحليل وتنظيم المادة رهن بما يعرض للمريض ؛ ومن هنا يمتنع على المحلل تناول أى أعراض أو

عقد بطريقة منظمة مطردة . وعلى النقيض تماماً مما كان يجرى فى التنويم وفى طريقة الحفز ، تظهر مكونات موضوع ما فى أوقات ومواضع متباينة من العلاج. ولذلك كان العلاج بالتحليل يبدو فى غاية الغموض للمتفرج – ولو أنه لا يمكن أن يوجد متفرج فى الواقع .

وثمة ميزة أخرى للطريقة، تلك هى أنها لا يمكن أبداً أن تخيب فى حقيقة الأمر . فالواقع أنه يمكن دائماً الحصول على خاطر ما ، طالما لم نشترط أن يكون من نوع بالذات . بيد أن ثمة فى الواقع حالة واحدة تخيب فيها الطريقة دائماً ؛ ومع ذلك ، فهذه الحالة لتفردها يمكن بدورها أن تُؤول .

علىّ الآن أن أصف عاملاً يضيف قَسَمَة رئيسية للصورة التى رسمتها للتحليل النفسى ، قَسَمَة يجدر اعتبارها ، نظرياً وفنياً ، فى المقام الأول من الأهمية . فى كل علاج تحليلى ، تنشأ على غير تدخل من الطبيب ، علاقة وجدانية عنيفة بين المريض والمحلل ، علاقة لا يمكن أن يفسرها الموقف الراهن . قد تكون تلك العلاقة موجبة وقد تكون سالبة ، وقد تتراوح بين طرفى نقيض ، بين حالة حب قوى ذى طابع شهوانى صريح وبين أقوى تعبير عن التحدى والبغض الشديد . هذا النقل – كما اصطلحنا على تسميته – سرعان ما يحل فى نفس المريض محل الرغبة فى الشفاء ، ويصبح ما دام ودياً معتدلاً العامل الفعال فى تأثير الطبيب على المريض ، والمحرك الرئيسى لعملية التحليل المشتركة بينهما لا أكثر ولا أقل . ولكن عند ما يصبح النقل فيما بعد عشقاً عنيفاً أو ينقلب إلى عداوة يصبح الأداة الرئيسية للمقاومة . وقد يحدث حينئذ أن يشل قدرة المريض على التداعى ويقف حجر عثرة فى سبيل نجاح العلاج . ولكن من الخرق أن نحاول أن نتجنبه ؛ لأن تحليلاً من غير نقل أمر مستحيل .

ومع ذلك لا ينبغى أن نظن أن النقل من خلق التحليل ولا يحدث إلا فيه . كل ما هنالك أن التحليل يكشف عنه ويبرزه . فالنقل ظاهرة عامة للنفس الإنسانية ، وهو الذى يقرر النجاح لتأثير الطبيب فى مهمته ،

ويسيطر فى الواقع على مجموع علاقات كل شخص ببيئته الإنسانية . ويمكننا بسهولة أن ندرك أنه نفس العامل الدينامى الذى أسماه المنوَّمون "القابلية للاستهواء" ، والذى يعتبر العامل الفعال فى العلاقة التنويمية والذى أدت تقلباته العديدة إلى صعوبات كثيرة فى طريقة التطهير . وعند ما تنعدم لدى المريض القابلية إلى مثل ذلك النقل الوجدانى ، أوعند ما يصبح سلبيًّا صرفاً كما هو الحال فى الجنون المبكر أو البارانويا ، فلا أمل فى التأثير على المريض بالوسائل السيكولوچية [١] .

حقًّا إن التحليل النفسى ، شأن غيره من طرق العلاج النفسية ، يستخدم أداة الإيحاء (أو النقل) ، ولكن مع الفارق التالى : لايُترك له فى التحليل القيام بالدور الحاسم فى تحديد النتائج العلاجية ، ويستخدم بدلاً من ذلك فى حفز المريض إلى تأدية عمل عقلى — هو التغلب على مقاومات النقل — عمل يتضمن تعديلاً دائماً فى توزيع القوى النفسية [٢] . على المحلِّل أن يجعل المريض يفطن إلى النقل ، وعليه أن يفضه بأن يبين له أن موقفه فى النقل إنما هو ابتعاث لعلاقات وجدانية مصدرها تعلق قديم بأفراد معينين إبان الفترة المكبوتة من طفولته. وعلى هذا النحو يصبح النقل أحسن أداة للعلاج بالتحليل بعد أن كان أمضى أسلحة المقاومة. ومع ذلك تبقى كيفية استخدامه أصعب وأهم جزء فى فن التحليل.

بفضل طريقة التداعى الحر وفن التأويل المرتبط بها ارتباطاً وثيقاً ، وُفق التحليل النفسى إلى شىء قد يبدو دون فائدة عملية ولكنه أفضى ضرورة إلى اتجاه جديد ومقياس جديد للقيم فى التفكير العلمى . فقد أمكن أن نثبت أن للأحلام معنى وأن نكتشف ذلك المعنى . كان للأحلام فى العصور القديمة أهمية

---

(١) تبين من تقدم البحوث التحليلية فى العشرين سنة الأخيرة أن المصابين بالجنون المبكر والبارانويا لا تنعدم لديهم القابلية للنقل انعداماً تاماً ، ولكن النقل عندهم من طبيعة تغاير طبيعته فى العصاب، الأمر الذى يتطلب تعديل طريقة التحليل كى تلائم حالة هؤلاء . (المترجم)

(٢) يصطلح فى التحليل النفسى على تسمية عملية التوزيع الكمى لقوى النفس المختلفة باقتصاديات النفس . (المترجم)

كبيرة فى التنبؤ بالمستقبل ؛ ولكن العلم الحديث أعرض عنها ، إذ أسلمها للخرافة معلناً أنها مجرد عمليات " جسمية " أو نوع من التشنج يطرأ على ذهن هو فى حالة النوم . ولم يكن يتصور أحد أن يظهر شخص قام بعمل علمى جدّى كمؤول أحلام . ولكن التحليل النفسى عند ما أنكر نبذ البحث فى الأحلام ، وعند ما اعتبرها أعراضاً عصابية لم تفسر ، وأفكاراً هذائية أو وسواسية ، وعند ما تغاضى عن ظاهر فحواها متخذاً من الصور المنفصلة التى تتكوّن منها موضوعات للتداعى الحر ، وصل التحليل النفسى إلى نتيجة مغايرة . أدت الخواطر المتعدّدة التى أنتجها الحالم إلى اكتشاف تركيب ذهنى لم يعد يوصف بمجافاته للعقل أو اختلاطه ، إنما هو على قدم المساواة بأى إنتاج ذهنى آخر ، تركيب ليس الحلم الظاهر فيه إلا ترجمة شائهة مبتسرة غير مفهومة ، ترجمة إلى صور بصرية فى العادة . تلك الأفكار الكامنة فى الحلم تنطوى على معنى الحلم ، فى حين كان ظاهر فحواها مجرّد إيهام ، مجرد واجهة ، تفيد كنقطة يبدأ منها تداعى الخواطر لا التأويل .

كان لا بدّ بعد ذلك من الإجابة على سلسلة بأسرها من الأسئلة ، من أهمها هل ثمة دافع لتكوين الأحلام ؟ ، ما الشروط التى تحدثها ؟ ، ما الطرق التى تحولت بها خواطر الحلم (تلك التى تزخر دائماً بالمعنى) إلى حلم (هو فى الغالب لا معنى له) ، وغير ذلك من الأسئلة . حاولت أن أحل جميع تلك المشاكل فى كتاب (تأويل الأحلام) الذى نشرته عام ١٩٠٠ . ولا يتسع المقام هنا إلا إلى خلاصة موجزة جداً لبحثى . عند ما تفحص أفكار الحلم الكامنة التى يكشف عنها تحليل الحلم ، تبرز إحداها من بين سائر الأفكار المفهومة التى يعرفها الحالم جيداً . هذه الأفكار الأخيرة من مخلفات اليقظة (مخلفات النهار ، كما تسمى فنيًّا) ؛ ولكن تبين أن الفكرة البارزة إن هى إلا رغبة ، من نوع تمجه النفس ، رغبة غريبة على الحالم فى يقظته وبالتالى فهو ينكرها فى استغراب أو ازدراء ، هذه الرغبة هى المنشىء الفعلى للحلم : فهى توفر الطاقة اللازمة لإنتاجه

وتتخذ من مخلفات النهار مادةً لها ؛ والحلم الذى ينشأ على ذلك النحو يمثل موقفاً فيه إشباع لتلك الرغبة ، فالحلم إذن تحقيق للرغبة . وما كان لهذه العملية أن تتم ما لم تهيئ لها طبيعة حالة النوم . ذلك أن الشرط النفسى الأساسى للنوم هو تركيز الذات فى رغبة النوم وانسحاب الطاقة النفسية من جميع مشاغل الحياة ؛ وحيث أنه فى نفس الوقت تغلق جميع المنافذ المؤدية إلى الحركة ، كان بوسع الذات أيضاً أن تقلل قدر المنصرف من الطاقة التى تقوم بالكبت فى أوقات أخرى . يستفيد الدافع اللاشعورى من ذلك التراخى الليلى للكبت فى أن يجد السبيل إلى الشعور بواسطة الحلم . على أن ما تبذله الذات من مقاومة كابتة لا تتلاشى فى حالة النوم ولكنها تقل فقط . ويبقى جزء منها فى هيئة " رقابة على الأحلام " تمنع الدافع اللاشعورى من التعبير عن نفسه فى الأشكال التى من شأنه أن يظهر بها لولا ذلك . يترتّب على صرامة الرقابة على الأحلام، أن تضطر أفكار الحلم الكامنة إلى أن تخضع للتغيير والتخفيف إخفاءً للمعنى المحظور الذى ينطوى عليه الحلم . وذلك ما يفسر تشوه الأحلام ، الذى إليه ترجع أبرز خاصية فى ظاهر الحلم . يحق لنا إذن أن نقرر أن كل حلم إنما هو تحقيق (مقنع) لرغبة (مكبوتة) . وهكذا نتبين أن الأحلام تتكون كأى عرض عصابى : فهى محاولات توفيق بين مطالب دافع مكبوت وبين مقاومة تبذلها قوة الرقابة فى الذات . وحيث أن لهما أصلاً واحداً كان كلاهما غير مفهوم ومفتقراً إلى تأويل .

ليس من العسير اكتشاف وظيفة الحلم العامة . فهو يهدف عن طريق التخفيف إلى درء المنبهات الخارجية أو الداخلية التى قد تؤدى إلى إيقاظ النائم ، وبذلك تحمى النوم من أى انقطاع . ويكون درء المنبهات الخارجية بإعطائها معنى جديداً وإدماجها فى موقف لا ضير منه ؛ أما المنبهات الداخلية الناشئة من ضغط الغرائز فيترك لها النائم الحرية ويسمح لها أن تجد إشباعاً فى تكوين الأحلام ، ما دامت أفكار الحلم الكامنة خاضعة لحكم الرقابة . ولكن إن همّت بالانطلاق

وأصبح معنى الحلم أوضح من اللازم ، قطع النائم حلمه واستيقظ فى رعب . (هذه الفئة من الأحلام تسمى بأحلام القلق) . ويلحق وظيفة الحلم إخفاق مماثل إن أصبح المنبه الخارجى أقوى من أن يدرأ . (وتلك فئة الأحلام الموقظة). وقد أطلق اسم إنتاج الأحلام على العملية التى تحوّل بمعونة الرقيب الأفكار الكامنة إلى مضمون الحلم الظاهرى . وهى عبارة عن معالجة فريدة لمادة الفكر قبل اللاشعورية ، بحيث تتكثف عناصرها ويزاح تأكيدها النفسى وتُترجم بأسرها إلى صور بصرية أو تُشخص ، ثم تُحبك بعملية إنتاج ثانوى خادعة . إنتاج الأحلام مثل رائع للعمليات التى تجرى فى الطبقات اللاشعورية العميقة من النفس ، تلك العمليات التى تختلف اختلافاً كبيراً عن عمليات الفكر السوّية المألوفة . وهى تكشف فضلاً عن ذلك عن عدّة خصائص قديمة ، مثل استخدام الرمزية (وهى فى هذه الحالة ذات صفة جنسية غالبة) التى أمكن منذ ذلك الحين اكتشافها فى غير ذلك من مجالات النشاط النفسى .

بينا أن الدافع اللاشعورى الذى يسبب الحلم يتصل بجزء من مخلفات النهار ، وباهتمام لا ينفد بعالم اليقظة ؛ هذا يكسب الحلم الذى يأتى على ذلك النحو قيمة مزدوجة لعملية التحليل . حقًّا إن الحلم عند ما يحلل يتكشف على أنه تحقيق لرغبة مكبوتة ذلك من ناحية ؛ ولكن الحلم من ناحية أخرى استمرار لنشاط قبل شعورى جرى فى النهار السابق ويحتوى على مادة ما ، سواء كان معبّراً عن عزم ، أو تحذير ، أو تأمل ، أو كان مرة أخرى معبراً عن تحقيق رغبة ما . فالتحليل يستغل الحلم فى ناحيتين ، أى كوسيلة للوقوف على عمليات المريض الشعورية واللاشعورية على حدّ سواء . ويفيد فضلاً عن ذلك من أن الأمور المنسية من الطفولة قد تظهر فى الأحلام ، وهكذا يحدث أن يقضى تأويل الأحلام إلى حدّ كبير على النسيان الطفلى . ومن هنا كانت الأحلام تؤدى جزءاً من المهمة التى كانت من قبل من خصوص التنويم . إلا أننى مع ذلك ، لم أقرر قط ما نسب إلىّ من أن تأويل الأحلام يبين أن لجميعها مضموناً جنسيًّا أو أنها جميعاً صادرة

عن قوى دافعة جنسية . فمن اليسير أن نتبين أن الجوع ، أو العطش ، أو الحاجة إلى الإفراز ، قد تنتج أحلام إشباع شأن أى دافع مكبوت ، جنسى أو أنانى . ولنا فى حالة صغار الأطفال اختبار طيب لصحة نظريتنا فى الأحلام . إذ لا تكون الأجهزة النفسية المتعدّدة قد انقسمت فيما بينها الانقسام الحاسم ، ولا يكون الكبت قد تأصل ، ولذلك غالباً ما تعرض لنا أحلام ليست سوى إشباع غير مقنّع لدوافع تخلفت عن اليقظة . وبالمثل قد يحلم الراشدون ، تحت تأثير الحاجات الملحة أحلاماً من ذلك الصنف [١] .

وكما أفاد التحليل النفسى من تأويل الأحلام ، أفاد أيضاً من دراسة فلتات اللسان والهفوات المتعدّدة — أو كما تسمى الأفعال العرَضية — التى يقع فيها الناس . درست هذا الموضوع فى سلسلة من الرسائل نشرت لأول مرة سنة ١٩٠٤ فى شكل كتاب بعنوان « سيكوپاثولوچية الحياة اليومية » . فى هذا البحث الذائع برهنت على أن هذه الظواهر ليست اتفاقية ، وأنها تتطلب أكثر من مجرّد التفسيرات الفسيولوچية ، وأن لها معنى وتقبل التأويل ، وأن بوسع المرء أن يستنتج منها وجود دوافع ونوايا محجوزة أو مكبوتة . ولكن ليست الأهمية الكبرى لتأويل الأحلام ولهذه الدراسة الأخيرة فى العون الذى تقدمه لعملية التحليل ولكن فى أمور أخرى . ذلك أن التحليل النفسى لم يكن له شأن من قبل إلا بعلاج ظواهر مرضية ، لا بدّ له كى يفسرها من التورط كثيراً من الأحيان فى وضع فروض شاملة شمولاً لا يتناسب مع أهمية المادة المدروسة فعلاً . ولكن عند ما وصل إلى الأحلام ، لم يعد بصدد عرَض مرضى ، بل بصدد إحدى ظواهر الحياة النفسية السوية التى قد تعرض لأى شخص سليم . إن كان قد تبين أن الأحلام تتكوّن على نحو تكوّن الأعراض ، وإن تطلب تفسيرها نفس الفروض

(١) (مذكرة إضافية ، ١٩٣٥) حيث أن عملية إنتاج الحلم كثيراً ما تخفق ، أمكن أن يتصف الحلم بأنه محاولة لتحقيق رغبة ما . ولا يزال تعريف أرسطو القديم للحلم بأنه حياة عقلية أثناء النوم محتفظاً بصحته . إذن كان ثمة داع أن اتخذت عنواناً لكتابى ، تأويل الأحلام بدلا من الحلم .

ـ كبْت الدوافع ـ عملية الإبدال ، عملية توفيق ، تقسيم الشعور واللاشعور إلى عديد من الأجهزة النفسية ـ فلم يعد التحليل النفسى علماً ثانويًّا فى مجال علم النفس المرضى ، بل أصبح بالأحرى أساساً لعلم جديد بالنفس أكثر عمقاً ، علم لا غنى عنه أيضاً فى فهم الحياة السوية ويمكن أن تصدق مسلَّماته وكشوفه على مجالات أخرى من الحياة النفسية ، وبذلك اتسع مجاله فبلغ ميادين قاصية ذات أهمية شاملة .

الحجرة التى كان يزاول فيها فرويد التحليل النفسى فى ڤيينا .
وترى المكتبة التى يستلقى عليها المرضى ، كما نلاحظ أنها زاخرة
بالتحف المصرية القديمة التى كان فرويد مولعاً بها كل الولع .